Revue : IMAGO Interculturalité et Didactique
Volume 23 Numéro 01 / Année 2024, pp. 203-217
www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/543
ISSN: 1111-3936 - EISSN: 2661-7722

المرأة من خلال كتابات التيار الإصلاحي .

أمينة رابح [1] ، عبد القادر خفيف [2].
جامعة وهران -1- أحمد بن بلة –الجزائر [1].
Bekai_amina@yahoo.fr
جامعة الزيتونة –تونس [2].
khefif_aek@yahoo.com

استلم:03/05/2024، مقبول: 01/06/2024، نشر: 30/06/2024

ABSTRACT: *The reformist movement has shown a wide interest in women, especially considering the harsh conditions they endured under French colonization, which subjected them to marginalization, injustice, oppression, and forced conversion to Christianity. Women were able to liberate themselves from this through the efforts of philanthropists within the reformist movement and similar ideologies, by advocating for women's education to achieve the desired cultural renaissance.*

KEYWORDS: Education, Women, Ibn Badis, Colonization, reformist movement.

الملخص: لقد كان للتيار الإصلاحي اهتمام واسع بالمرأة، خاصة في ظل استعمار عسكري وثقافي نظر إليها على أنها البوابة التي تسهل الولوج إلى الأسرة والمجتمع، فسعى بذلك إلى سلخها عن دينها بتعليمها ثقافة فرنسية غربية ثم تنصيرها. ولقد استطاعت المرأة مواجهة هذه التحديات والتحصن من هذه الهجمات بفضل جهود الخيرين من أصحاب التيار الإصلاحي والتيارات المقاربة له، وذلك بتعليم المرأة والدعوة له مع رفع المظالم التي قيدت المرأة بسبب الجهل بأحكام الدين وانتشار العادات والتقاليد الاجتماعية الجائرة، كل هذه الجهود كانت تقصد إلى إشراك الشق الآخر من المجتمع في تحقيق النهضة الحضارية المنشودة .

الكلمات المفتاحية: تعليم ، المرأة ،التيار الإصلاحي ،ابن باديس ،الاستعمار .

مقدمة :

شهد العالم الإسلامي حركات نهضوية وإصلاحية جاءت لتغيير الواقع السائد في الوطن العربي بريادة عدد من الشخصيات العلمية أمثال: محمد عبده وجمال الدين الأفغاني وغيرهم، وقد وصل أثر هؤلاء الأعلام إلى الجزائر التي كانت تعيش تحت وطأة الاستعمار الفرنسي الغاشم، حيث التجهيل المتعمد لأفراد المجتمع وذلك بمنع الجزائريين من التعليم،

وبحرمانهم من جميع مقومات الحياة، وكانت من نتائج الاحتكاك العلمي بين المشرق والمغرب ظهور الحركات الإصلاحية في الجزائر، وهي أسلوب سلمي جديد لمواجهة مكائد الاستعمار بعد فشل الثورات الشعبية، وقد كان من اهتمامات هذا التيار التركيز على شؤون المرأة وقضاياها من أجل تأهيلها للمشاركة في التحرر من قيود الجهل والأعراف الفاسدة، وكذا التحصن من سهام التغريب والتنصير .

ومن هنا نتساءل عن وضعية المرأة الجزائرية إبَّان الفترة الاستعمارية كيف كانت ؟ وكيف غيرتها كتابات التيار الإصلاحي ؟ وما هي الحلول التي وضعها هذا التيار للنهضة بها وترقية دورها في مجابهة الحملات التدميرية للهوية الجزائرية ؟ .

تمهيد :

تفطنت النخبة الجزائرية منذ مجيء المستدمر الفرنسي إلى أهم أهدافه التي كانت تصب في صالح تنصير المجتمع وسلخه عن هويته الإسلامية والعربية، فكانت أول وسائل المجابهة في البداية عسكرية محضة، فلما فشلت خيارات المقاومة لجأت إلى تفعيل آليات أخرى سلمية وذلك ريثما تتأتى ظروف الكفاح العسكري، ولعل من أهمها الدعوة إلى ضرورة التعليم والتوعية المعرفية والتشبث بالهوية الوطنية، ذلك أن الجهل والأمية سيساعدان المستعمر في تحقيق مشاريعه وأهدافه، كما أن الكفاح والثورة المسلحة لا يمكن أن تنجح في أوساط شعبية بعيدة عن العلم والمعرفة.

ومما تفطنت له الحركات الإصلاحية أنه لا يمكن أن يكون التعليم قاصرا على جنس دون جنس، بل إن المرأة ركن أساسي في كل تغيير منشود ولا يمكن أن تصد أهداف المستعمر إلا بإشراك المرأة في الدفاع السلمي والتحصين العلمي، خاصة وأن العدو قد وجه سهامه للمجتمع دون تفريق بين ذكر وأنثى، غير أن عملية التعليم والتربية للإناث ليست بالمهمة السهلة، وذلك بسبب جملة من العوائق يمكن اختصارها فيما يلي:

-إهمال تعليم المرأة في الفترة التي سبقت احتلال الجزائر، حيث يرى الدكتور أبو القاسم سعد الله أن العثمانيين لم يهتموا بتعليم المرأة حتى ولو كانت من طبقة الأمراء والحكام فكيف بمن دونهم، وفي السياق ذاته لم يستبعد وجود عائلات وأسر علمية اهتمت بتعليم بناتهم بمجهوداتهم الخاصة، لكن حسب ما استدل به من روايات على وجود بعض المتعلمات فإن ذلك لم يكن على نطاق واسع، كما أن تعليمهن كان لتحصيل بعض المعارف الفقهية والعقدية فقط (أبو القاسم، 2007، الصفحات 363 -1) .

-استلاء المستعمر الفرنسي على المدارس الوقفية وتعطيل الدراسة بها، فإن سلمنا لبعض الروايات التي أفادت وجود مدارس خاصة بالبنات قبيل الاحتلال (أبو القاسم، 2007، الصفحات 338-1) ، فإن عمل المستعمر بغصبها قد زاد وضعية تعليم النساء سوءا وترديا، هذا مع محاربة الاستعمار للتعليم الديني الذي وجده في البلاد .

-الأعراف والتقاليد التي كانت تمنع خروج الإناث لغير ضرورة ولو كان ذلك لتعلم العلم، وسنرى كيف وقفت هذه العقبة في وجه دعوات جمعية العلماء لتعليم البنات، ولعلها بنيت على قول شاذ أو اجتهاد فقهي خاطئ .

البواكير الأولى لقضية الاهتمام بتعليم المرأة :

تعتبر فكرة تعليم المرأة وتربيتها من القضايا التي اهتمت بها الحركة الإصلاحية بمصر، ثم انتقل تأثيرها إلى بقية دول العالم العربي خاصة المجاورة لها مثل تونس والجزائر والمغرب، ومن هنا نجد أن أول نواة لدعاة التعليم النسوي بدأ على يد بعض العلماء الجزائريين المتأثرين بفكر محمد عبده ورشيد رضا، ويرد في هذا الصدد أسماء بعض المصلحين الذين أظهروا هذه القضية في كتاباتهم ودعوا إليها، ومن هؤلاء نذكر تمثيلا ما يلي:

-الشيخ عبد القادر المجاوي:

ترك عدة مؤلفات منها كتاب "اللمع في شرح نظم البدع"، وقد أكد فيه على ضرورة تعليم المرأة لمواجهة الجهل والفساد الأخلاقي والانحراف عن الدين الحق، فما كثر الفساد في رأيه إلا بعدم تربية الأولاد، وقد رفض أن تعلم المرأة نصف تعليم لأن إثمه أكبر من نفعه، وحسنه أقل من عيبه، ذلك أن غير المتعلمة " قد يتيسر أن تقنعها بأنها جاهلة، ثم نوصيها بلزوم الرجوع في تربية طفلها إلى رأي من هو أعرف منها بشؤون التربية، أما التي تعلمت تعلما ناقصاً، ورأى أولياؤها ألا يعطوها من العلوم سوى قراءة القرآن، وكتابة أبجد هوز، وجناب الأكرمين حاسبين أن ذلك القدر كاف، وأنه أليق بها وأحوط في سلامة دينها وآدابها، فإن هذه المرأة تصبح بهذا التعلم الناقص ذات عجب وعناد ولجاج، فلا تعود تصغي المشورة من هو أعلم منها، ولا تقف في إفساد تربية ابنها وتدبير منزلها عند حد" (المجاوي, عبد القادر، 2010، صفحة 117).

من خلال نص المجاوي نقف على جملة من ملامح نظرة المصلحين الأوائل لفكرة التعليم النسوي، حيث الحرص على إتمام التعليم فلا يقتصر على مراحل ابتدائية لا توصل إلى النتائج المطلوبة، ومن مقاصد هذه الدعوة التأكيد على تحقيق ثمرات تعليم المرأة ومنها الإلمام بشؤون التربية وحسن تطبيق هذه المعارف على أبنائها وأسرتها. وعليه نلمس عند هذا المصلح حسن الربط بين الدعوة والواقع، وتحليل النتائج وفق النظرة إلى المآلات والمقارنة بالأهداف والمقاصد .

-الشيخ مصطفى الكمال (محمد بن مصطفى بن خوجة) :

من مؤلفاته التي رافع فيها لصالح تعليم المرأة كتابه المعروف ب: "الاكتراث بحقوق الإناث"، ولئن كان اهتمامه فيه بالحقوق الشرعية للمرأة كزوجة؛ إلا أنه تطرق لقضية تعليم المرأة في

نقاط مهمة منها هذه الثلاثة:

-عدد ثمانية خصال في المرأة تطيب العشرة وتديم العقد وتثمر مقاصد الزواج، وجعل في مطلعها خصلتين هما: الدين والخلق (المجاوي، 2010، صفحة 117) ، ولاشك أنهما لا يتحققان إلا بالتعليم والتربية .

- رأى أن أكثر المشاكل والخلافات الزوجية راجعة إلى جهل الزوج والزوجة بعلم الدين، إذ أن سوء معاملة المرأة لزوجها وعدم استقباله ببشاشة ولطف راجع إلى جهلها، وقد عقد مقارنة بينها وبين حسن معاملة المرأة الأوروبية لزوجها وذلك لتغذيتها بلبان المعارف (ابن الخوجة، 2006، الصفحات 44-45).

- تخييره للزوج بين كفاية زوجته علميا بأن يعلمها بنفسه في البيت، وإن لم يستطع ناب عنها في السؤال وأخبرها بالجواب، وإلا وجب عليها الخروج للسؤال والتعلم لأمور الدين ويعصي الزوج بمنعها (ابن الخوجة, مصطفى، صفحة 110). والكلام نفسه بينه في كتاب آخر عنوانه: "اللباب في أحكام الزينة واللباس والاحتجاب"، وزاد فيه نقلا عن الإمام محمد عبده يبين فيه خطورة إهمال تعليم المرأة على نفسها وعلى أسرتها (ابن خوجة، 2010، صفحة 159).
- تكلم في أواخر خاتمة كتابه عن فضل وفائدة تعليم الإناث، فبدأ ببيان عدم صحة حديث:{لا تنزلوهن في الغرف ولا تعلموهن الكتابة وعلموهن سورة النور والغزل}، وتساءل متعجبا: كيف يكون صحيحا وقد وجد في الصحابيات متعلمات يعلمن النساء الكتابة كالشفاء بنت عبد الله القرشية وكأمهات المؤمنين حفصة وعائشة رضي الله عنهن، وذكر قائمة طويلة بأسماء نساء عالمات وصالحات في التاريخ الإسلامي (ابن الخوجة, مصطفى، صفحة 118).

نلاحظ من خلال الزاوية التي عالج منها الشيخ مصطفى الكمال قضية تعليم الأنثى إلى أنه رفع سقف المطالب، وذلك حين خاطب الأزواج وألزمهم بتعليم الزوجات، فكيف ونحن أمام مجتمع لا يسمح بخروج البنت الصغير للتعليم فكيف يرضى بتعلم الزوجة التي صارت في عصمة رجل أشد غيرة عليها من بقية قراباته، ثم كيف يرضى بذلك وقد ازدادت المسؤوليات على هذه المرأة بصفتها زوجة وأما، ومن هنا ندرك شمولية الدعوة على تعليم الإناث وأنها لم تكن قاصرة على عمر دون عمر، بل تزاد أهميتها كلما ازدادت مسؤوليات المرأة .

من خلال ما سيق حول خطابات هذين العلمين يمكن القول أن الدعوة إلى التعليم النسائي في بدايتها انطلقت بقوة، حيث التأصيل الشرعي للعملية، والتكييف مع الظروف الراهنة والبيئة الحاوية، الشمولية التي تجعل من العملية تمس جميع الفئات العمرية، التركيز على تحقيق الهداف والثمرات التي تعود على الأسرة والمجتمع ككل، وعليه فالفكرة حين إطلاقها كانت تامة النضج ومستوفية الأركان، ولم يتبق إلا الشروع في المراحل التطبيقية للعملية التعليمية، ولعل ظهور الفكرة في مصر وتونس ومناقشتها قد أكسب النخبة الجزائرية الإصلاحية جهدا ووقتا جعلها تظهر المشروع في مراحل متقدمة منه مع مراعاة الخصوصية الجزائرية .

هذا وننبه إلى أن بعض الصحف الصادرة حينها قد شاركت في رفع هذه الدعوات، مثل جريدة الفاروق 1913 التي أسسها عمر بن قدور المتأثر بفكر محمد عبده الإصلاحي، كما شارك هذا المصلح مع عمر راسم في تأسيس جريدة ذو الفقار سنة 1913 وقد تبنت بعض قضايا المرأة ومنها حقها في التعليم، فللشيخ عمر بن قدور مقال مطول عنوانه: "بجهل المرأة المسلمة وأحلامها الفاسدة نال الشعب من كوارث البدع ما ناله" (بن علي, زهير، 2015)، أكد فيه على أن جهل المرأة المسلمة من أهم أسباب تعثر النهضة لما لها من آثار سلبية على الأسرة والمجتمع .

جهود جمعية العلماء في تبني التعليم النسوي :

لئن كانت بعض الشخصيات الوطنية سبقت جمعية العلماء في الدعوة إلى تعليم الإناث ونشر الفكرة في مختلف الجرائد والمجلات؛ فإن ذلك لم يسهل مهمة الجمعية بعد، بل نجد هذه الأخيرة قد اشتغلت على أكثر من جبهة لتحقيق هذه الدعوة، فمن جهة واصلت المرافعة والمدافعة عن هذا الحق وذلك ببيان خطورة إهمال سد هذه الثغرة، ومن جهة أخرى شرعت في تحويل الأفكار والأقوال إلى مشاريع وأعمال وتجسيدها على أرض الواقع.

أما عملها في الجهة الأولى فقد بدا واضحا من خلال الصحافة التي تشرف عليها، فقد ظهر من خلال المقالات المختلفة لأعضاء الجمعية أنها كانت مدركة منذ بزوغ فجرها لأهمية المرأة ودورها في أي حركة نهضوية وإصلاحية، وأنها ركن مركزي لا تقوم قائمة الأمة ولا تبقى هويتها بدونه، ذلك أن كون الأمة كالطير لا تطير إلا بجناحين، وجناحاها هما الرجل والمرأة. فالأمة التي تخصّ الذكر بالتعليم تريد أن تطير بجناح واحد وستقع لا محالة. (الإبراهيمي، 1997، الصفحات 170-4).

كثف علماء الجمعية في مقالاتهم من سرد الأدلة المقنعة التي لا تدع مجالا للشك حول ضرورة تعليم النساء، فتراهم يذكرون في أحيان كثيرة أن المرأة مكلفة مثل الرجل، ما يجعلها تفتقر إلى المعارف التي تصحح بها عقيدتها وتقيم على نورها عبادتها، إذ لا يمكن أن تؤخذ تكاليف الشرع إلا بالعلم (الإبراهيمي، 1997، صفحة 50)، كما تجدهم يستعملون التدليل بالواقع والعقل لإقناع الناس الذين جعلتهم العادات والتقاليد يأنفون من تعليم بناتهم، فما دامت المرأة هي المربية للأبناء والغارسة للطبائع والصفات في نفوسهم والمتعهدة بسقيها ورعايتها، فكيف يهمل تعليمها ويهجر تبصيرها، يقول البشير الإبراهيمي: "وإذا كانت تربية النحل والدود تفتقر إلى العلم فكيف لا تفتقر إليه تربية الإنسان ؟ فإذا جهلت المرأة أتعبت الزوج وأفسدت الأولاد وأهلكت الأمة". (الإبراهيمي، 1997)

وكثيرا ما تربط المقالات بين واقع مشرق وتعليم البنت أو واقع هش وإهمال تعليمهن، ففي مقال لابن باديس يتحدث فيه عن الشيخ رشيد رضا ويربط بزوغه بأمه التي كانت على جانب عظيم من الدين والعلم، ويستثمر هذه المعلومة ليبين بعدها أن تدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق. والضعف الذي يحدث ينعكس على التنشئة الغير سليمة للأطفال بسبب جهل الأمهات (ابن باديس, عبدالحميد، 1968، صفحة 201).

أما في جهة التجسيد والتنفيذ لتلك الأفكار فقد اتبعت الجمعية جملة من الخطوات التي حازت بها قصب السبق في تطبيق فكرة تعليم الإناث، كما كسرت الأعراف السائدة عند المجتمع الذي كان يرى ذلك خطا أحمرا وعيبا أكبرا، حيث أن المسجد أو الكتاب كان خاصا بالذكور دون الإناث (أبو القاسم، 2007، الصفحات 399-6)، ومن هذه الخطوات نذكر ما يلي:

- تأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية في قسنطينة على يد الشيخ عبد الحميد ابن باديس سنة 1930، وأسندت لها مهمة تحقيق جملة من الأهداف منها: تأسيس مكتب التعليم يشرف على تعليم الأبناء والبنات تعليما دينيا صحيحا (ابن باديس, عبدالحميد، 1968، الصفحات 184-3)، وتنويها بدورها وأهدافها النبيلة كتب ابن باديس مقالا في جريدة الشهاب، أبدى من خلاله إعجابه بالمجهودات المبذولة من قبل مشرفيها وبالثمرة الطيبة التي حققتها في ظرف وجيز (ابن باديس ع.، 1968).
- تأسيس جمعية العلماء المسلمين في ماي سنة 1931 بالجزائر العاصمة، وقد نص قانونها الأساسي على أن فروع الجمعية في الولايات تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم، كما سعت هذه الجمعية إلى إصلاح التعليم القديم والذي كانت تشوبه سلبيات كثيرة، وقد ناقشت في مؤتمرها السنوي الخامس 1935 بنادي الترقي بعض المحاور المتعلقة بالتعليم المسجدي والمكتبي، وشرح أحواله وعوارضه التي هو عليها الآن وكيف ينبغي أن يكون، وسجلت فيه عدة نقائص منها: اقتصار التعليم على الذكور دون الإناث (الإبراهيمي, البشير محمد، 2009).

-فتح أبواب مدارس الجمعية للبنات مع تذليل الصعوبات المادية حيث تقرر مجانية التعليم للإناث، أما الذكور فيدفع المبلغ القادرون عليه فقط (ابن باديس, عبدالحميد، 1968، الصفحات 3-186).

-فتح مدارس خاصة بالبنات يتولى تدريسهن المعلمات، وذلك بعد تزايد أعداد الطالبات وتكوين عدد من المعلمات، ومن هذه المدارس: مدرسة شريفة الأعمال بالجزائر العاصمة، مدرسة عائشة في تلمسان، مدرسة تهذيب البنات في البليدة .

-تمكين النساء من حضور دروس المسجد الخاصة بهن، وقد وضع ابن باديس أول قدم في هذه المبادرة عندما خص النساء بدرس داخل المسجد الأخضر بقسنطينة،

-العمل على تشجيع البنات ومرافقتهن لمواصلة التعليم العالي وعدم الاقتصار على المراحل الأولى فقط، وقد راسل ابن باديس مديرة مدرسة " جمعية دوحة الأدب " بدمشق لقبول عدد من الطالبات الجزائريات فوافقت على استقبال عشر طالبات، وقد تم اختيارهن من منتسبات جمعية التربية والتعليم وتقرر سفرهن في أكتوبر 1939، غير أن اندلاع الحرب العالمية الثانية في شهر سبتمبر من السنة نفسها حال دون ذلك، ثم تعطل المشروع نهائيا بوفاة ابن باديس في أفريل 1940 (بن علي، 2015، صفحة 315).

- الدعوة إلى إصلاح الوضع الاجتماعي للمرأة :

كانت الجزائر كغيرها من الدول العربية والإسلامية المريضة تقبع تحت أعراف وعادات فاسدة فرضها الجهل والابتعاد عن الدين الصحيح، ومعلوم أن المرأة هي الطرف الضعيف في جسد المجتمع ما يجعلها أسرع وأكثر تأثرا بما يسوده من الخير أو الشر، ولقد تنبهت النخبة الإصلاحية الجزائرية إلى هذه الثغرة التي تعتبر بوابة تسلل الأعداء وانتشار الداء، ويمكن إرجاع عوامل الاهتمام بالجانب الاجتماعي عند المرأة إلى أمرين هما:

- ظهور أصوات في العالم العربي تطالب بتكسير القيود الظالمة التي صفدت بها المرأة، ومن هؤلاء قاسم أمين الذي أصدر كتابه "تحرير المرأة" سنة 1899م بتشجيع من الشيخ محمد عبده، وبغض النظر عن الجانب الفقهي والشرعي الذي انتُقِد فيه كثيرا فإنه يعتبر رائد الدعوة العربية إلى تحرير المرأة (صلاح، صفحة 85).

-تجنيد الاستعمار الفرنسي للمفكرين والمستشرقين من أجل تحرير المرأة الجزائرية لا من العادات الفاسدة كما زعموا وأظهروا؛ ولكن من دينها وقيَمها بالدرجة الأولى، ولم يكن التحرير مقتصرا على الكتابات والخطابات فحسب (أبو القاسم، 2007، صفحة 354).

بل أحضروا النساء الأوروبيات إلى الجزائر للاختلاط بالمرأة المسلمة والتأثير عليها، ولإنجاح ذلك تم فتح المصانع والورشات تحت ذريعة تعليم النساء الحرف والسماح لهن بالعمل لإعالة أنفسهن، لكن مارست هذه المصانع عملية التحويل وغسيل الأدمغة، يقول أبو القاسم سعد الله: "وسوف لا نذكر كذلك ورشات السيدة لوسي (الليكس) والسيدة ابن عابن، وسيدات كثيرات في العاصمة وفي زواوة وميزاب وبسكرة ووهران وغيرها حيث دروس الطرز والنسيج التي تحولت إلى دروس في الترقية الاجتماعية والدمج الحضاري، ومثلت بداية التوتر داخل الأسرة الجزائرية بين الأم والبنت، والبنت والأب، والجار والجار" (أبو القاسم، 2007، الصفحات 6-338)، كما أن عدم احترام خصوصيات المجتمع من قبل الوافد الفرنسي زاد من انغلاق

المرأة في المدينة وخوفها من الخروج بسبب التحرش والاعتداءات (أبو القاسم، 2007، صفحة 339).

وعليه فإننا نجد أن الوضع الاجتماعي للمرأة الجزائرية لم يتغير إلى الأحسن، إذ كانت تقبع تحت سلطة العادات والأعراف وأصبحت تابعة لحركات تحرر تقودها نساء من غير دينها ولا جنسها، الأمر الذي ينذر بخطر التغريب والتنصير للمجتمع المسلم عبر بوابة المرأة، وهذا ما حرك المصلحين إلى العناية بالقضية الاجتماعية للمرأة، فالعامل الأول نبههم إلى أهمية المرأة في إنجاح الإصلاح المنشود، أما العامل الثاني فنبههم إلى تربص المستعمر بالمرأة من أجل التأثير والتغيير في المجتمع الجزائري، وهذا الأخير ما نجح إلا بوجود أرض خصبة بالتهميش الاجتماعي للمرأة وإهمال دورها، ما يلزم النخبة بإصلاح أوضاع المرأة قبل أن تقع فريسة في الفخ الفرنسي .

إن الفئة الإصلاحية الأولى التي حملت رياح التغيير من المشرق إلى المغرب كانت في مجملها كفاءات علمية درست في الزيتونة أو الأزهر، أو تكونت تكوينا دينيا في الجزائر لكن احتكت برجال الحركة الإصلاحية في المشرق، ولذلك تمكنت من معالجة الإجحاف الاجتماعي للمرأة من خلال أحكام الشريعة الإسلامية، فهذا الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة يعالج بعض المظاهر الاجتماعية التي كانت تعاني منها المرأة، وقد تحدث عن أربعة منها وهي (ابن الخوجة، 2006، صفحة 62):

-عدم توريث النساء رغم تصريح القرآن بحقهن، وذكر أن بعض قبائل الشرق الجزائري وضعوا قانونا بمعاقبة من يتفوه بتخويل المرأة شيئا من التركة، حيث غرموه بخمسين ريالا .

-وجوب أن تدفع المرأة شيئا من المال للزوج عند الخلع حتى لو كان النشوز من قبله، ولا يتوقف الأمر عند هذا بل إذا خالع الرجل امرأته فإنه يشترط عليها شروطا مجحفة، كأن لا تتزوج بعده بأي رجل أو من فلان أو من بني فلان .

-استلاء ولي المرأة على مهرها دون إعطائها شيئا منه .

-عرف تعلاقيت المختص بقبيلة بني فليق، وطريقته: إذا مات زوج المرأة حبسها أهله عندهم فإن انتهت عدتها وأراد أحدهم أن يتزوجها أعطى وليها مهرا وأخذها دون إذنه، وإن لم يكن لهم بها حاجة زوجوها لغيرهم واشترطوا عليه مهرا يعطون بعضه لوليها ويتقاسمون البقية بينهم على أنه من تركة الهالك .

لقد عالج ابن الخوجة تلك المظاهر على ضوء الآيات القرآنية وأسباب نزولها، والأحاديث النبوية وأسباب ورودها، ليبين للمجتمع أن هذه الأعراف الفاسدة ما هي إلا عادات جاهلية قد بعثت من جديد، وأن الظلم الواقع على المرأة ما هو إلا تعطيل لنصوص وأحكام شرعية، ولئن وُفِّق في هذا الجانب فإنه لم يكن منصفا-ولعله تكلم حسبما بلغه- في قصر هذه الأعراف على قبائل بربرية بعينها، لأننا وجدنا في الذاكرة الشعبية المتوارثة أن هذه العادات كانت منتشرة في الشرق والغرب، وعند البربر والعرب .

كانت هذه الأعراف والعادات الهاضمة للحق الشرعي للنساء متجذرة في المجتمع قبل قدوم الاستعمار الفرنسي، لكن بحلول هذا المستدمر- الذي أراد إنصاف المرأة حسب رؤيته وثقافته الغربية والغريبة على الجزائر- زادت بذلك الأخطار التي تتربص بالمرأة، فمن سلخ حقوقها الشرعية إلى سلخها عن دينها وقيمها وتحريرها من بعض المظاهر الشرعية التي كانت

موجودة، وهذا ما فتح جبهة جديدة في حرب الإصلاحيين ضد المفاسد والمظالم الاجتماعية التي تعاني منها المرأة، وقد ظهر النضال في الجبهتين جليا في خطابات وأعمال رجال جمعية العلماء المسلمين، وسنذكر اختصارا بعض هذه المظاهر التي عالجوها وحاربوها .

-صور الشيخ مبارك الميلي في كتابه "مظاهر الشرك" الوضع الذي كانت تعيشه المرأة الجزائرية في ظل الخرافات والجهل، إذ هي الأكثر تأثرا بالسحر وممارسة له، وهي المولعة بالرقى والعزائم اللاشرعية، وأكثر من يدعي المس بالجن (مبارك ، 2021، صفحة 250)، وهذا الجانب كان موضوع اهتمام كبير عند رجال الجمعية الذين رفعوا لواء التغيير ومحاربة المستحدثات التي سلطت على الرقاب تارة باسم الدين وأخرى باسم عادات الآباء والأجداد، وهذا الموضوع قد نال حظه من الدراسة والبحث.

أما مواجهة التغريب والتبشير فهو الآخر كان محورا مركزيا في الحركة الإصلاحية، ولا يختلف العقلاء أن هذا الأخير أخطر وأشد ضررا من المظاهر الاجتماعية الفاسدة، لأن المجتمع كان في دائرة الدين حينها، أما مع هذه الدعوة التحررية فسيترك دينه ولغته وكل مقومات هويته، خاصة وأنها وجدت من أبناء جلدتنا من يحمل لواءها ويدعو إليها، فهذا الشيخ ابن باديس رحمه الله تعالى ينشر مقالا في جريدة الشهاب يوضح فيه باختصار أن كتاب " امرأتنا " للطاهر حداد يدور في فلك دعوة المستعمر الهادفة إلى الذهاب بها في تيار المدنية الغربية وإخراجها عن حدود دينها ووظيفة أنوثتها، فهو في الحقيقة " يدعو إلى إبطال أحكام عديدة من أحكام القرآن الصريحة القطعية الاجتماعية، وتعطيل آيات عديده من آياته بدعوى أنها غير لائقة بالنساء في هذا العصر" (ابن باديس, عبدالحميد، 1968، الصفحات 475-3) .

لم تقتصر معالجات الأوضاع على الردود المباشرة على هذه الدعوات، بل كانت تستغل كل المنشورات والكتابات مهما كان موضوعها للتحذير والتبصير من التغريب والتنصير، والمطالع لدروس ابن باديس في التفسير والحديث ليجد تطبيقات منزلة على واقع المجتمع الجزائري، ففي أحد شروحات الحديث النبوي يقول رحمه الله بضرورة الحفاظ على الوضعية الإسلامية للمرأة الجزائرية العفيفة الطاهرة (ابن باديس, عبدالحميد، 1968، الصفحات 207-7).

هكذا أقامت النخبة الإصلاحية نضالها الرامي إلى مواجهة فساد قديم ينخر جسد المجتمع فلا يمكنه من العافية والنهوض، وفساد حديث جاء به المستعمر ظاهره فيه التحضر والتحرر وباطنه من قبله التغرب والتنصر، مستعينة في مواجهة التحديات بكل الوسائل المتاحة من الكتابة في الجرائد والمجالات، وتأليف الكتب والرسائل، وتأسيس النوادي والجمعيات والمدارس، واستثمار الدروس والخطب المسجدية في توعية المجتمع بأهمية ودور المرأة في التغيير والإصلاح مع المحافظة على الأصول والقيم.

كما اجتهد الإصلاحيون في إيجاد البدائل لمنافسة الدعوات الغربية، ففي مقابل المدرسة الغربية فتحت المدارس العربية الحرة، وكمنافس للجرائد التي أنشأتها فرنسا ودعمتها من طرف خفي أسست الجرائد الإسلامية والوطنية، ولصد دعوة المرأة للعمل خارج بيتها بحجة دفع الفقر والحاجة تعالت الأصوات التي تفضح مقاصد دعاتها، وتوضح أن إثمها أكبر من نفعها، ووصل الأمر إلى دعوة الأثرياء إلى إنشاء مصانع خاصة بالنساء تشرف عليها مديرات عفيفات مع

إلفات أنظار المناضلين عن الحقوق الاجتماعية والاقتصادية والصناعية إلى حقيقة الأمر (قبال ، 2021، صفحة 229) .

خاتمه :

كان للتيار الإصلاحي الجزائري حضور قوي في صناعة الفكر التحرري ضد الاستعمار الفرنسي الغاشم، وقد أخذت قضية المرأة مكانة مهمة في هذا الفكر الإصلاحي، خاصة قضية تعليمها وتسليحها بالمعارف الحضارية من أجل المشاركة في صناعة استقلال الجزائر وبناء النهضة المنشودة، وذلك من خلال الدعوات النظرية إلى تعليم المرأة ثم تطبيقها عبر فتح المدارس المختلطة أولا ثم الوصول إلى مؤسسات تعليمية خاصة بالبنات، مع تعزيز وتقوية العملية بفتح أقسام في المساجد لتعليم الأمهات اللواتي تقدم بهن السن، بل حتى فتح المجلات لمشاركة المرأة في الكتابة الإصلاحية، ومن ما استعرضناه في مادة هذا البحث فقد توصلنا إلى جملة من النتائج والتي نذكرها فيما يلي:

-أوضاع المرأة العلمية والاجتماعية في الجزائر خلال أواخر العهد العثماني كانت سيئة جدا، وذلك بسبب انعكاسات الأوضاع السياسية للرجل المريض وبداية سقوط الخلافة الإسلامية.

-الاهتمام بالمرأة وقضاياها كان موجودا منذ المراحل الأولى من استعمار فرنسا للجزائر، فقد تفطن علماء الجزائر لتلك الأجندة الفرنسية التي استغلت الأوضاع المزرية للمرأة، وحاولت ركوب موجة حركة التحرر النسوي التي ظهرت بالعالم العربي .

-لقد واجه التيار الإصلاحي تجهيل المرأة وتنصيرها واستغلال ضعفها من قبل الفرنسين، وذلك بفتح المدارس والمساجد لتعليمها، الدعوة لمجانية التعليم، توعية الآباء والأولياء بضرورة تعليم البنات .

-زيادة على عراقيل الإدارة الفرنسية لمنع التعليم العربي واجهت الحركات الإصلاحية أعرافا وتقاليد فاسدة جعلت من تعليم المرأة خطا أحمرا .

-امتلاك القيادات الإصلاحية للعلم والمعرفة بالشرع والمجتمع الجزائري وتمكنهم من طرق الحجاج والإقناع أزال الكثير من العقبات والصعوبات التي واجهت مشروع التعليم والتحرير للمرأة الجزائرية .

-حالة الظلم الاجتماعي التي عانت منها المرأة الجزائرية ما هي إلى إحدى انعكاسات الجهل والأمية التي كانت تعاني منها المرأة، ولا سبيل إلى تحقيق العدالة الاجتماعية عند المرأة إلا بتعليمها .

ختاما نقول أن أحداث المرحلة الزمنية التي عالجها المقال تؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن دور المرأة في بناء الحضارة لا يقل خطورة عن دور الرجل، وأي إهمال لجانب تعليمها وتكميلها هو إفشال لمشاريع النهضة والإصلاح الحضاري، وما تفطن النخب الإصلاحية لهذا الدور المحوري إلا بسبب القناعات المكتسبة من العلوم الشرعية التي أكرمت المرأة وأظهرت فضلها ومكانتها في قيام المجتمعات والحضارات منذ بزوغ فجر الإسلام .

قائمة المصادر والمراجع :

-الإبراهيمي ،محمد البشير، الأثار، دار الغرب الاسلامي.

- الإبراهيمي ،محمد البشير، سجل جمعية العلماء المسلمين، الجزائر: دار المعرفة .

- الإبراهيمي، طالب ، أثار بن باديس ،دار الغرب.
- المجاوي ،عبد القادر ، (2010). *اللمع على نظم البدع*، الجزائر: دار زمورة.
- الميلي ،مبارك ، (2021). *رسالة الشرك و مظاهره*. عمان: دار الراية.
- زكي ،صلاح ، (2001). *أعلام النهضة العربية الاسلامية في العصر الحديث*. القاهرة: مركز الحضارة العربية.
- زهير ،بن علي، (2020)، المدرسة الاصلاحية الجزائرية و دورها في تعليم البنات و إصلاح المرأة. *المعيار*، 315.
- سعد الله، أبو القاسم، *تاريخ الجزائر الثقافي* (المجلد 3).
- مراد ،قبال، (صفر– سبتمبر، 2021)، قضايا المرأة الجزائرية من خلال صحيفة الشهاب، *مجلة دراسات تاريخية*.
- مصطفى، ابن الخوجة، (2006.). *الاكتراث بحقوق الإناث*. بيروت: دار ابن حزم.
- مصطفى، ابن الخوجة، (2010). *اللباب في أحكام الزينة واللباس و الاحتجاب* ، بيروت: دار ابن حزم.